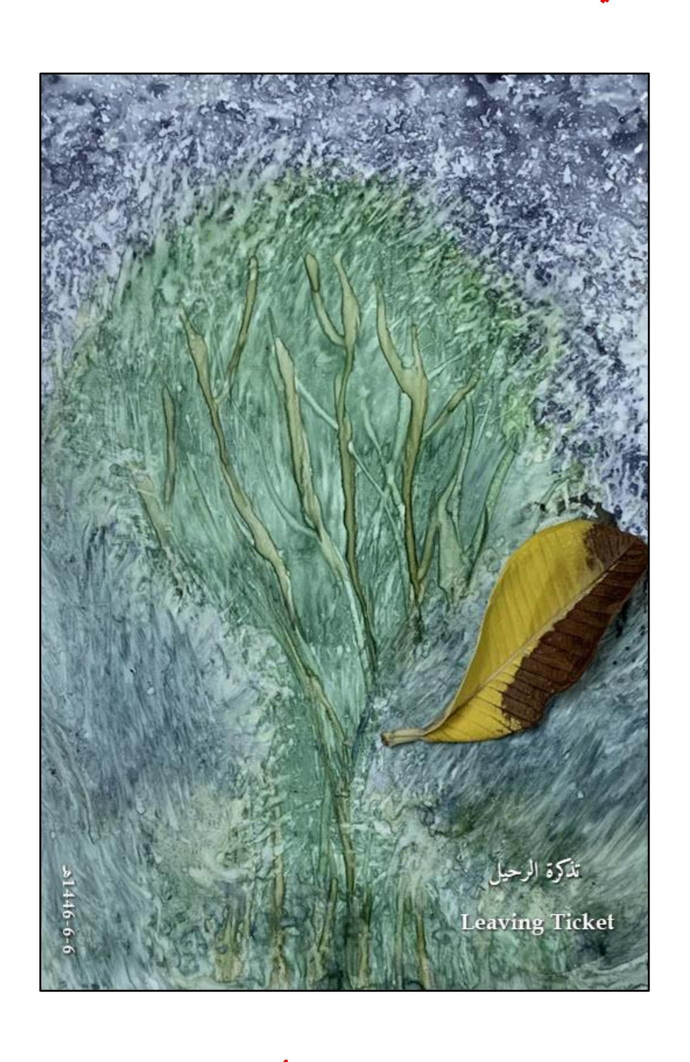
ضجيج الصمت

حلمي صابر - جمادى الآخرة ١٤٤٦هـ



العيش في ضباب كثيف، يعدمُ رؤية ما فيه وما وراءه
ظلام لا ترَ فيه يديك
ولا موضع قدميك

في هذا الضباب المظلم، اختفى الطريق
وقد يكون المرء نفسه على الطريق بلا محطة ليصل إليها
فالأمسُ لا علاقة له باليوم
وليس اليومُ خطوةً إلى الغد

طريق غير واضح المعالم
طريق متعرج،
مرتفع ومنخفض،
ملتوٍ صعودا ونزولا
بعيد وطويل كثير الحفر

وتزيد ظلمة السائر في هذا الضباب
بأنَّ صدره لا تحبسه ضلوعه ولا معايير
ليس ثمة صواب ولا خطأ
عيشٍ اللذة والهوى والرغبة
تعيس بمفردهِ
سعادته وأنسه بناسهِ
فتصرفاته يحددها الآخرون
ليس في صدره قرآن ولا سنة
بهما يضبط الميزان

كورقة شجر
تخضر ثم تصفر ثم تيبس ثم تتفتت
وعند هبوب الرياح في الأعاصير
تنثرها الرياح
كرماد بعثره الريح
فهو شخص تهبُ عليه الأمواج والرياح
لا يواجهها، ولا يصدها، ولا يهربُ عنها
يركبها وأينما قذفتهُ، كان مكانُه !
مرةً في أعلى التل، وبعد قليلٍ في قاع البحر

وهذا الذي بلا ميزان
كورقة تطفو على جدول نهر
يلقيها النهر حيث ألقاها
مع أوراق وأعواد وطين
ثم توقف النهر لوقوف المطر
ثم الجفاف
ليبراليا، عصرانيا، كافرا، ملحدا
إنسان بلا معايير
ليس في صدره قرآن ولا سنة
ولا في حياته أنبياء ورسل
أضاع نفسه بأكاذيب المتعالمين

هو كورقة انتهى بها النهر في البحر
فقذفتها الأمواج
وتحت الأمواج سمك القرش
ثم هدأ الموج، فنهشته الأنياب
بدعاوى الحرية والديمقراطية والكرامة العالمية

أوراقنا صفراء بالية
ما كان ينقصها أنياب سمك القرش
ولا مخالب النسر

وإذ الجفاف والمخالب والأنياب، فعلتْ فِعْلها فينا وفي الناس
عندئذ، ووقتئذ: إما أنْ تصمت وإما أن نتكلم
ونتيجةُ فعلِهِ في كلا الحالتين: الحبس

حبس الجسد خلف القضبان
فيصير حبسا إجباريا بأنياب القرش ومخالبهِ
أو حبس اللسان داخل الصدر
فيصير حبسا اختياريا

ومكانئذ وزمانئذ: تذوق مرارة الصبر
فتجعل بيتك قبلة
وتعيش في صمت
وتموت في صمت
لكن الصمت ضجيج !
ضجيج لا يزيله هبوب الريح وصوته

صمت، صار معه الضباب أشد ضبابا
لم يعد فيه لم ترى يديك وموضع قدميك
بل تكاد فقدتهما
فكيف تلمسُ الطريق
وكيف تعرفُ قدماكَ اقترابها الهاوية

ما أصعب العيش بصمت
في انتظار تذكرة الرحيل

رحل بعضنا غصنا يابسا
ورحلَ بعضنا أصْفَرا
وبعضنا داكن اللون يابسا بعد الاصفرار
وبعضنا سيرحل أخضرا
وبعضنا رحلَ حبَّةً بلا غصن ولا ساق

أقولُ: ما أصعب العيش بصمت
بل من شِدَّةِ الصمت
صار الصمتُ نفسه
ضجيجا !

انتهى

